مكتبة الطفل





سميراميس

السلسلة التاريخية

مكتبة الطفل



السلسلة التاريخية

سميراميس

تأليف :ـ عبدالتواب يوسف

رسوم:ـ قاسم ولي

تصميم:ـ احلام عباس

مقدمة

إن بعض الأساطير حقائق عظيمة ! وربما لاتصدِّق ذلك .
فتقول : الأسطورة محض خيال ، أو تقول : الأسطورة حُلمُ تمنى الإنسان يوما أن يتحقق . وأقول لك : إن كلامك قد يكون صحيحاً ، ولكن ليس كل الحقيقة .. فبعض الناس غير الاعتياديين ، قد قاموا بأعمال خارقة ، أذهلت البشر الذين عاشوا معهم ، في عصرهم فمجدوهم وجعلوهم أبطالاً . وهذه الأعمال هي أعمال انسانية ، من صنع البشر ، لكن ليس كل الناس يستطيعون القيام بها .. أما سمعت شاعرنا العظيم المتنبي يقول :

لولا المشقة ساد الناس كلُّهم
الجودُ يُفقِر والاقدام قتال !

ولكنَّ بين الناس أبطالاً ، لايهابون المشقة ، ولايترددون أمام المخاطر ، لا يُثنيهم عن عزمهم شيء إذا أقدموا ، وإذا فعلوا ، أشياء لايستطع الآخرون فعلها او الاقدام عليها ..

وعندما يكون الانسان على هذا النحو الرائع من البطولة في كل شيء في حياته ، يصبح حديثَ الناس الذين يعيشون في عصره ، فينال المجد الذي صنعه ، أضعافاً مضاعفةً من الذكر المقرون بالاكبار .. وعندما يمضي عصر البطل ، وتمرُّ عصور بعده ، ولايبقى منه إلاّ أعماله المجيدة ، فانَّ الناس من حبهم له وإكبارهم إياه ، يأخذون بتمجيده وتصويره ، وتكبر الصورة وتتضاعف تفاصيل الصورة حتى تصبح أسطورة .. وتسمىّ هكذا لأنها تقترب من الخيال ، ولكنها حقيقة وليس في أصلها تخيُّل أو وهم

وأنا ياصديقي القارىء ، لاأريد أن أجعلك تتخيَّل أو تصدِّق أنَّ كل الأساطير هي حقائق ! لا ، ولا ، ولا .. ليس كل الأساطير حقائق ! فبعضها أوهام ، وبعضها تخيلات ، وبعضها أشياء يختلقها بعض الناس لأغراض في نفوسهم .. لكنني أريد أن أؤكد أنَّ بعض الحقائق قد أصبحت أساطير ، حتى كاد الناس لايصدقون أنها حقائق ! لماذا ؟ لأنها أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع ، ثم لماذا هذا ؟ الجواب :

لأنَّ صانعيها أبطال من البشر غير اعتياديين ، لكنَّهم بشر على كل حال ..
ستجد كلامي الذي قلته لك صحيحاً ، وواضحاً ، وستشاركني في رأيي ، عندما تقرأ «أسطورة سميرأميس» .. فيتراءى لك أن هذه المرأة لم توجد إلا في خيال





الرواة ، ألقوهالنا عبر التأريخ فكبرت وضخمت ، كما تتضخم كرة الثلج عندما ترمى على الأرض المثلجة ! ولكن السيد تأريخ ، سرعان مايردُّنا إلى الحقيقة ، ويقول لنا شهادته الصادقة بقلمه الذي لايمحوه الزمن ، سيقول لنا : إن «سميراميس» هي حقيقة ، أمرأة عظيمة حقيقية ، عاشت على الأرض وبين البشر لكنها عملت أشياء عظيمة

ولنسمع أو نقرأ شهادة التأريخ كما يرويها لنا الأستاذ الدكتور فوزي رشيد ، حينما سألناه عن «سمير أميس» أأسطورة هي أم حقيقة :

- «سميرأميس»

قبل كل شيء ان أسمها باللغة الاشورية هو «سمّورامات» ومعناه «محبوبة الحمام» . وكانت زوجة للملك الاشوري «شمشي أدد» الخامس ، ٨٢٤ - ٨١٠ ق . م ، توفي زوجها ، وكان أبنها ولي العهد «اددنيراري» مايزال صغيراً .. وقوة شخصية «سمّورامات» مكنتها من أستلام مقاليد الحكم ، وصيةً على أبنها . وأستمرت في الحكم مدة خمس سنوات ، حتى بلغ أبنها «اددنيراري» سن الرشد .

عملت سمّورامات في أثناء مدة حكمها مسلّة لتخليد ذكراها ، وأقامتها في ساحة المسلات ، في معبد آشور . وقد كشفت عن هذه المسلّة بعثة آثارية ، نقبت في موقع آشور .. وفي هذه المسلة جاءت هذه العبارات :

«مسلّة سمّورامات ، سيدة قصر شمسي أدد ملك العالم ، ملك بلاد آشور ، أم أددنيراري ، ملك العالم ، ملك بلاد آشور ، كنة شلمنصر ، ملك الجهات الاربع»

ويحدثنا الدكتور فوزي رشيد فيقول :

- النصوص المسمارية ، سواء كانت آشورية أم بابلية ، لاتحتوي أية معلومات أسطورية عن الملكة سمورامات ..

ولكن وردت معلومات تاريخية عن سمورامات ، غير أنها وردت ضمن الكتابات اليونانية التي حوّلت أسمها إلى سميرأميس .. فقد ذكرها المؤرخ الشهير اليوناني «هيرودوتس» في حديثه عن مدينة بابل ..

أما سمير أميس الأسطورة فقد ذكرها المؤرخ ديودوس الصقلي ..»

والآن ياأصدقائي الطيبين :

أظن أن هذا يكفي .. لقد عرفنا الحقيقة والآن لنبدأ بقراءة الأسطورة الرائعة ، كما كتبها الاستاذ عبد التواب يوسف ..

إذن هيّا إلى الأسطورة الحقيقة ، أو الحقيقة التي صارت أسطورة .. أتمنى لكم رحلة ممتعة في عالم سميرأميس الرائع ..

صلاح محمد علي





- ١ -

البداية

هذه حكاية المرأة الحقيقية «محبوبة الحمام» التي صارت أسطورة ! وبرغم غرابة الأسطورة وجمالها ، فحقيقتها كانت أجمل ، ألايكفي أنها من بلاد آشور العظيمة ؟ فلتقرأ الحكاية التي صارت أجمل الأساطير : حكاية «سمورامات» أو كما تسميها الأسطورة «سميراميس» ..

تقول الحكاية : إنها وليدة جميلة ، لها أم وأب من آشور .. وقد هاجمهما اللصوص وقطّاع الطرق عند البئر ، وتحت الشجرة ،

فاضطرا لان يهربا ، وكل منهما يتصور أن الصغيرة مع الآخر ، في حين كانت وحيدة في جوف الصحراء ، وقد أرتفعت صرخاتها باكية ، مولولة ! ترى كيف يمكنها أن تعيش ؟ كيف تحصل على طعامها وشرابها ؟ من يحميها من الطبيعة القاسية والاخطار ؟ ! كانت الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، تحوم وترفرف هنا وهناك ، ولمحت بطرف عينيها تلك الصغيرة الباكية ، وربما سمعت صرخاتها العالية ، وهي تقترب منها ، وقد تكون دموعها وصيحاتها قد هزّت الحمامة فانطلقت إلى رفيقاتها ورفاقها تستدعيهم وتسالهم أن يأتوا لكي يروا هذه الوليدة الجميلة .. وقدم سرب كامل من الحمام يطير ويرفرف ، وراح يدور من حولها ، ثم يحط فوق أغصان الشجرة التي تظلها ، ويرتفع الهديل ، والصغيرة لاتبالي بما يجري حولها ، فالجوع يوجع معدتها الخاوية ، وهي ، تريد طعاماً وشراباً وحنانا .. كان الحمام في دهشة شديدة ، فانه لايترك وليده وحيداً بعد أن يخرج من البيضة ، بل يظل إلى جانبه يرعاه ، ويحميه ، ويطعمه .. هذا ما يفعله الحمام ، فما بال الإنسان ـ صاحب العقل واللسان ـ يترك وليدة وحيدة ، تحت الشجرة ، بلا رعاية أو حماية ؟ من يضع لها اللبن في ثغرها كما تفعل أم الحمام وأبوه لفراخهما كانت «محبوبة الحمام» أو سميرأميس ترقد عاجزة .. لذلك طار الحمام هنا وهناك بحثا عن شيء يطعمه إياها ، وارتفعت الحمامة البيضاء الناصعة البياض إلى فوق ، وعلت في الفضاء عن ورفقائها والحزن يملأ قلبها الصغير ، ومن خلال دموعها لمحت مضارب خيام البدو ، وكانت النساء في تلك اللحظة يقمن بجلب الأغنام ، فسارعت الحمامة إلى رفيقاتها ، وراحت تهدل ، ثم انطلقت ، وهم من ورائها ، إلى أوعية اللبن الحليب .. وقف الحمام يرفرف ، في صف طويل ، وراحت كل حمامة تلتقط من الوعاء قطرة لبن ، تبقيها في منقارها الصغير ، وتمضي بها إلى حيث ترقد الوليدة ، وتضع منقارها في فم الصغيرة ترضعها قطرة الحليب ، وتطير لتاتي من بعدها حمامة أخرى ، وهكذا .. كفّت الوليدة عن البكاء ، في حين كان سرب الحمام يروح ويغدو واحدة بعد الأخرى .. وتبتسم «سميرأميس» وترنو بعينيها إلى السماء ، تشكر لها أن بعثت إليها بهذا الحمام الحنون .. ويكفّ هذا عن نوحه ، ويهدل جذلاً فرحا ..

ظل الحمام يقوم بارضاع الوليدة الصغيرة من دون ملل أو كلل وكان يشعر بسعادة غامرة ، وهو يؤدي هذه المهمة الجليلة ، التي أوكلها له القدر ، وقد حدث ـ ذات يوم ـ أن شهد الحمام ثعباناً يزحف تجاه «سميرأميس» الصغيرة ، وشعر الحمام بذعر شديد فهو يخشى الثعبان كالموت ، وهو إذا لم يبتلعه طعاماً لدغه ليسري السم في جسمه إلى أن يقتله .. وعندما اقترب الثعبان من الصغيرة لم يكن هناك وقت للتفكير ، إذ أنقضّ الحمام طائراً كالسهم ، وراح ينقر



الثعبان في رأسه حتى تركه جثةً هامدة ، بجوار «سميرأميس» التي كانت تناغي في فرح وبهجة كانها تدرك حقيقة ما حدث ، ثم راحت في نوم عميق ! كان الحمام يضيق ببكاء الوليدة الصغيرة ، لكن ما إن تسكت وتستغرق في النوم حتى يصير أكثر ضيقاً وقلقاً ويروح يحوم ويرفرف قريباً منها ، ومع النوم يقترب منها أكثر ، بل إنه يلتصق بها ليلاً ، ليدفئها ، بديلاً عن الثياب والغطاء ..

من هدى الحمام ليطعم «سميرأميس» ؟ من دفعه لأن يحميها من الثعبان ؟ من جعله يلتف من حولها ويلتصق بها ليدفئها ؟ .. ترى ، إلى متى أستمر هذا ؟ وكم بقيت الصغيرة رضيعة للحمام ؟ .. وهل يمكن أن يبقى ذلك الوضع طويلاً ؟

أسئلة كثيرة ، لا نعرف كيف نجيب عليها .. لكنَّ المهم أن الحمام كان لابد أن يبلغ الناس في أشور بهذه الوليدة الصغيرة ، فهو لايستطيع أن يتحمل مسؤوليتها طويلاً ، فهي بحاجة إلى أشياء كثيرة غير الطعام والنوم .. والجو بارد ليلاً .. ولابد للصغيرة من أن تكون نظيفة .. ولا قدرة له على كل ذلك .. ماأكثر مايحتاجه الصغير في طفولته المبكرة ، وما أكثر ما تؤديه الام ، والأب أيضاً ..

تشاور الحمام فيما بينه ، وأرتفع هديله ، حتى وصل إلى حل واختار لها من يرعاها ، وكان عليه وهو حامل الرسائل أن ينقل رسالة منه شخصياً إلى من أختار .. ترى كيف السبيل الى هذا ؟ .. تقول حكمة الصحراء إن الحيوان قد يموت عطشاً وهو يحمل قربة الماء .. كان لابد للحمام أن يفكر ..

- ٢ -

«الصبية»

نظر الطفل الصغير إلى الحمامة البيضاء ، الناصعةالبياض ، وهي تهبط بالقرب منه ، وراحت هي تهز برأسها وتشير ، والصغير في دهشة لها ، فخطا نحوها فلم تبتعد كثيراً ، ووسَّع من خطواته ، فمضت أسرع قليلاً ، كأنما تقول له :

- اتبعني ..

وفهمها الطفل ، واقتفى أثرها والسرب معهما ، وعندما لمح الطفل تلك الوليدة الصغيرة راقدة تحت الشجرة ظهرت على وجهه علامات الدهشة ، واقترب منها في خطوات وئيدة ، وانحنى عليها في ذهول .. ثم أطلق ساقيه عائداً إلى البيت ليبلغ أهله بالأمر .. لم يصدقوه في البداية ، لكنهم مضوا معه لكي يحملوا «سميرأميس» إلى الدار ، وهم يعدّونها هدية من السماء ، ويحتفلون بها احتفالاً كبيراً كيف عاشت وحيدة في هذه الصحراء ؟ كيف وجدت طعامها وشرابها ؟ من حماها ورعاها ؟ وقد زاد من دهشتهم أن شاهدوا بجانبها ذلك الثعبان الصريع ، وتصوروا أنها خنقته بيديها ، وأنها بذلك صنعت معجزة ..

ومن هنا تناقلوا عنها ألف حكاية وحكاية : وكان كل واحد منهم يضيف لكل حكاية عبارة أو جملة أو كلمة ، وإذا بنا أمام فيض لاينتهي من الروايات والأخبار .. هناك من قال : إنها كانت ترضع ضوء الشمس ، ومن إنها خرجت من بيضة حمامة .. وقد أضفت عليها كل هذه الحكايات هالة من السحر والاعجاب لذا رعوا الوليدة الصغيرة ، وأفردوا لها جناحاً فسيحاً في دارهم ، وأحضروا لها المرضعات ، ورعوها رعاية خاصة ، ومنحوها ذلك الاسم الجميل المثير «محبوبة الحمام» الذي عرفته كل الدنيا فيما بعد : «سميرأميس» . ونمت الصغيرة الجميلة ، الذكية ، المرحة .. وبدأت تضع أقدامها على الأرض ، وراحت مع كل خطوة تخطوها يحكون عنها حكاية .. إنها تنطلق في الساحات الواسعة حول الدار ، تجري فتسبق قريناتها وأقرانها ، ولا يستطيعون اللحاق بها .. إنها نشطة ، تكبر بأسرع مما يتوقعون ، وتأتي من الأشياء بما يتجاوز سنها ، وتقول كلمات أكبر من عمرها .. خاصة فيما يتعلق بأحلامها التي تراها في أثناء نومها وفي غضون يقظتها .. إنها دائما حالمة .. والكل يتناقل عنها تلك الاحلام ويروونها ضاحكين ، غير ساخرين ، ويحاولون أن يفهموها ..

- حلمت بالأمس أني أبني قصوراً عالية في الفضاء ..

- لا لا .. لاتبني ياآبنتي قصوراً في الهواء !

- إذا لم يكن لها أساس عميق وهندسة سليمة !

- ولكن لماذا تختلف أحلامها عن أحلام رفيقاتها ؟

- رأيتك ياعماه في حلمي ..

- ماذا كنت أفعل ؟

- ألم تكن معي ؟ فأنت تعرف ماكنت تفعل .. رحت تحاول أن تجلسني على مقعد كبير .. كبير .. كبير ..



- وهل نجحت ؟ !
- طبعا .. وحاول البعض أن ينزلوني من عليه لكنني تشبثت به ، وظللت فيه لا أحد يقدر على أن يصلني !

ويضحك العم ، ويبتسم أحيانا وينصح الصغيرة الا تأكل طعاماً ثقيلاً قبل النوم ، وهي تؤكد له أنه لا علاقة لأحلامها بالطعام والشراب ، وانها تستقبل أحلامها في ابتهاج ، وتعترف له أنها تحب أحلامها ، وانها إذا لم تأتها ليلاً تجلس إلى نفسها نهاراً لتسرح ، وتصنع بنفسها أحلامها ..

- لكن ، ياعماه ، أليس غريبا أن أحلامي ليست ملونة ؟
- ماذا تعنين «ياسميرأميس» ؟
- أراها بيضاء ،كالحمامة .. او سوداء كالظلام ..
- وأي شيء في هذا ؟
- ليست هكذا الدنيا والحياة .. الزرع أخضر ، الشمس صفراء ، الدم احمر ، والسماء زرقاء .. لماذا لا أرى الالوان في أحلامي
- لست أدري .. لماذا تسألينني أسئلة لاقدرة لي على إجابتها ؟
- لأني أريد أن «أعرف» الكثير !
- سوف أذهب لأسأل لك كبير أمناء مكتبة آشور
- هل يعرف كل شيء ؟ !
- مامن أحد يعرف كل شيء .. هو يعرف أكثر من غيره ، لأنه يقرأ ، ويكتب . اللغة الآشورية بالخط المسماري
- ولماذا لاأقرأ أنا كذلك ، وأكتب ؟
- لم نتعود أن تفعل الفتيات ذلك !
- تعوّدوا .. ثم أنني أريد أن أتعلم وأفهم
- صدقت ..

وينصرف الرجل عنها وقد ازداد إعجابا بها وتقديراً لها .. شيء واحد كان يقلقه عليها : إنها تستيقظ ليلاً ، وتروح تصدر نغما يقترب من هديل الحمام : صوتاً رقيقاً ، عذباً ، ناعماً ، هادئاً .. ولم تكن مع الصباح تتذكر هذا ، لكنها فقط تحكي عن أحلامها الواسعة العريضة .. ويأتي العرّافون ومفسرو الأحلام ، وكل منهم يقول شيئاً مختلفاً عن الآخر ، لكنهم يجمعون على أن هذه الصغيرة سوف يكون لها شأن ، وأي شأن ! وكانت تسمعهم عبارة تتردد دوماً على لسانها :
- وماذا بعد ؟ !

لكن الأسرة التي تستضيفها تريد أن توفر عليها ذلك ، لكن الصغيرة تأبى دائما إلاّ أن تثبت وجودها ، ثم أنها تصرُّ باستمرار على أن تستخدم عقلها ، وتدلي برأيها .. حتى إنهارت تبكي وتضرب الأرض بقدميها من أجل أن يسمحوا لها برعي الغنم وهي في الخامسة ، من عمرها !

- ٣ -

(الراعية)

خرجت الراعية الصغيرة مع الأغنام .. وأعطاها ذلك مزيداً من الفرص من أجل مزيد من الأحلام ، وهي تجلس تحت شجرة أو نخلة ، تتطلع بعينيها الى أغنام بذهنها : سارحة ، حالمة ، بعيداً .. وقد بدأت تخفي بعض أحلامها عن الأسرة التي أعدتها واحدةً منها ، وهي لاتدري السر في رغبتها في الإبقاء على بعض الاحلام لنفسها .. ماذا كانت تخشى ؟ ! قد تكون قد بدأت تدرك أنَّ أحلامها تجعلها «مختلفة» عن الباقيات ، وهي لاترغب في أن تبدو كذلك ..

- عقّب البعض لدى سماعة بعض أحلامها :

- أحلامك عريضة ، ياسميرأميس ..

وترد سميرأميس : - ولكنني لست بمريضة .. نعم ، أحلامي عريضة ، بل أعرض مما تتخيلون ، واوسع مما تتصورون ، ولابُدَ لي فيها ..

وكانت - برغم ذلك - بعض أحلام الراعية قاسية مرعبة .. إنها قد ترى ذئباً يهاجم أغنامها ، أو ثعباناً يتلوى ناحيتها ، والغريب أنها كانت دوماً تتجاسر على محاربتها ، ولاتخاف أو تتراجع ، بل تقابلها في بسالة ، وكثيراً مانجحت في أن تصرعها قبل أن تصحو من نومها .. وهي مع هذه الاحلام تصحو متعبة مرهقة ، تعلو الصفرة وجهها الهادىء ، العذب ، الحلو ..

أما في يقظتها فهي تشارك أبناء الحي في رعي الغنم ، لاتتخلف عن الركب ، وتمسك دائما بعصا صغيرة تختارها من فروع الشجر ، تزينها بضع أوراق خضر ترفعها في قبضتها منتصبة مستقيمة ، حتى في أثناء جلوسها فوق الرابية العالية تطالع الأغنام وتنظر حالمة إلى الافق البعيد ، متساءلة :

- ماذا وراءه ؟ وماذا بعده ؟ !

وعلى الرغم مما أشتهرت به من السرحان ، إلا أن عينيها لاتغفلان عن حراسة أغنامها ، وقد حدث يوماً أن جاء الذئب - في الواقع لا في الحلم - وهرب الرعاة ، وتفرقوا كل إلى ناحية ، وثبتت هي ، ومضت وحدها تجاهه في يدها عصاها ، وهاجمت بها الذئب وأستطاعت بضربة واحدة أن تجعله يقع مضرجاً بدمائه ، ولم يقدر بعدها على أن يرفع رأسه .. وزعم الرعاة الصغار أن حمامات نزلت قبل ذلك لتنقرعين الذئب قبل أن تجهز هي عليه ، وعندما عادوا ليجدوه صريعاً عادوا إلى البلدة ، وهم يحتفون بها ويهللون ، ويترنمون بأسمها ويهتفون :

- سميرأميس .. سميرأميس ..





كان ذلك الهتاف أجمل ماسمعته في حياتها ، منذ وعت وقد أحبته كثيراً وتمنته ، وحلمت به لكن عندما تحقق كان وقعه أروع وأجمل .. وظل يتردد في أذنيها خصوصاً إذا كانت وحدها تحت الشجرة في اثناء رعي الغنم ، وحين تعهد الاسرة إلى سميرأميس بأن ترعى الحصان ، تشعر بفرحة غامرة ، ولا يفوتها أبداً أن تعتلي صهوته ، وأن تتدرب على ركوبه ، وكانت قدرتها على ترويض الخيل كبيرة ، ومهما جمح بها كانت قادرة على كبح جماحه والإمساك بلجامه بقوة ، فلم تقع مرةً واحدةً من فوق ظهره .. ولم تكن الفتيات يفعلن هذا ، وكانت هي تقابل بدهشة من الفتيان والحصان ينطلق بها راكضاً ، وهي ملتصقة به ، وكأنَّها قطعة منه .. ولم يكن هناك أطرف من منظرها وهي تستعير سيفاً خشبياً تبارز به أقرانها من الفتيان ، وتنجح في طعنهم به ، بل قد يقع واحد منهم من فوق حصانه في أثناء ذلك في حين هي ثابتةً لاتهتز .. والرعاة الصغار يعزون كل نجاحها وتفوقها إلى : الحمام ، فقد رأوه دائماً يحلق من فوقها ، ويتبعها أينما تسير ، فما من مرة مضت بقطيع الأغنام إلا وكانت هناك أكثر من حمامة ترفرف ، وتظللها ..

وهي لاتنسى ذلك اليوم الذي دعتها فيه أسرة صديقة لتناول طعام الغذاء ، وشهدت على المائدة بضع حمامات ، وأذهلها ذلك ، فما تصورت أن الناس يذبحونه ويأكلونه ، وقد عافت نفسها الطعام ولم تمد يدها إليه ، ومنذ ذلك الحين والاسرة التي تستضيفها تحرم صيد الحمام وذبحه ، بل كانت تتركه يلتقط الحبوب من حقولها الواسعة .. وتمد سميرأميس يدها بقطع صغيرة من الحلوى للحمام الحبيب ، وتضحك رفيقاتها لانها تحرم نفسها منها لكي تعطيه إياها !

الحمام يذهب معها حين بدأت تتردد على واحد من علماء آشور يعلمها كيف تكتب بالخط المسماري على رقَم الطين ، إذ تاقت نفس سميرأميس إلى أن تتعلم الكتابة والقراءة من أجل أن تعرف أكثر ، لأنَها مازالت تذكر ذلك اليوم الذي قال لها فيه رب الاسرة إن كبير أمناء المكتبة يعرف الكثير لأنَّه قرأ الكثير ! واستطاعت هي في مدة وجيزة أن تسبق أقرانها من الصبيان ، إذ كانت الفتاة الوحيدة التي سعت إلى التعليم .. هي دائماً «مختلفة» عن الاخريات ، وهي لاتحب ذلك ، لكنه لم يضايقها في شيء ، إذ احترمتها رفيقاتها ، وبادلتهن الاحترام ، وعاشت بينهن في ودٍ ومن دون خلاف .. وإن كان واضحاً تفوقها عليهن ، وسبقها لهن !

وكانت أسعد لحظاتها تلك التي تقضيها قرب برج الحمام ، يأتيها ليشاركها الجلسة ، وكثيرا مايحاول أن يعطلها عن كتابة دروسها على رقم الطين ، لكنها كانت مصرة على أن تتعلم ، وكانت شديدة الدأب في مراجعة دروسها ، فهي تتحدث إلى الحمام وكأنه يفهمها وتفهمه ، وهي تحبه من كل قلبها ، خصوصاًبعد أن جاءتها تلك الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، لتضع فوق رأسها تاجاًمن الزهور في واحد من أحلامها ، وقد طارت سميرأميس من ورائها تسألها معنى هذا الذي فعلته ، لكن الحمامة طارت واختفت .. ترى هل تجد لديه الآن شرحاً وتفسيراً ؟ ! إنه يهز رأسه ، كأنما يقول لها : لاتتعجلي .. غداً تعرفين كل شيء !

كانت «سميرأميس» وهي صغيرة تحلم بأن تصبح كبيرة ، وعندما ترى ظلها طويلاً أمامها تطارده ، وتجري وراءه ، ولا تلحق به ، لكنها تهتف قائلة :

- أريد أن أصبح طويلة مثل ظلي !

وعندما كبرت قليلاً كفت عن هذا الحلم ، الذي راح يتحقق رويداً رويداً ، وشغلها عنه الحمام ورعي الغنم ، وركوب الخيل ..

وكبرت ، لتصبح فتاة فاتنة ، حالمة تخطو على الأرض فلا تكاد أقدامها تلامسها من فرط الرقة ، وتخطر بين الحمائم فتظنها واحدة منها ، وذات صباح ، خرجت من الدار كعادتها ، صبيحة الوجه ، مشرقة ، واقبل عليها الحمام ، يحوم ويحيي ، وعند ذلك شاعت البسمة في قسماتها ، ومضت في هدوء بضع خطوات وهو يجتذب كل التفاتها ، وفجاةً سمعت بعض أصوات من صبية يلعبون ، ويتصارخون وفي يد كل منهم ، مصائد يطلقون بها أحجارهم تجاه الحمام ، فتصيب حصاة رأس واحد منه فتدور ، وتسقط صاحبتها صريعة ، وأخرى تضرب بالجناح فينكسر ويقع صاحبه على الأرض يكاد يلفظ الأنفاس .. وتلاشت الابتسامة من على وجه «سميرأميس» وصرخت فيهم :

- يالقسوتكم !

وانطلقت سميرأميس تطارد الصبية ، وتفرقوا هنا وهناك ، فاقتفت أثر أكبرهم الذي توسمت فيه أن يكون هو الذي أغراهم بطيرها الوديع ، وعندما نجحت في اللحاق به لم تكن قاسية معه مثل قسوته مع الحمام ، بل عاتبته برقة ، الأمر الذي جعله يطرق خجلاً .. ولم تتنبه «سميرأميس» إلى أنها قد بعدت كثيرا عن دارها إلا حين أخلت الصبي من بين يديها وتطلعت إلى ما حولها ، واذا بها تجد نفسها وسط الرمال ، إذ أنساها غضبها المسافة الطويلة التي قطعتها وصولا للصبي ..

تنهدت ، وبدأت تأخذ طريقها للعودة ، وفجأة تكاثف الغبار ، تحت أقدام عدد من راكبي الخيل من جيش آشور ، فرفعت يديها تحمي وجهها من التراب المتطاير وراحت بين الحين والآخر تحاول أن تنظر من بين جفنيها المسدلين لترى إذا ماكانت كوكبة الفرسان قد مضت ، وكانت أصوات وقع أقدامها تتباعد وعندما هدأت وفتحت سميرأميس عينيها وجدت فارساًقد ترجل من فوق حصانه ، ووقف قبالتها ينظر إليها في رقة واعجاب ولكنه صاح في صوت خشن قوي يأمر الجند أن يتوقفوا وأن يضربوا خيامهم في هذه المنطقة .. وكانت هذه اللحظات كافية لكي تجعل «سميرأميس» تعود إلى نفسها ، وتنفض عنها الغبار المثار ، استعداداً للسير راجعة إلى بيتها .. لكن الفارس الشاب اعترضها وهو يقول في عذوبة :

- لقد بَعُدْت عن بيتك ..

ردت عليه : لاتقلق علي .. أنا كالحمامة تعرف طريق عشها مهما بعدت عنه ..

- وأين عشك أيتها الحمامة ؟

- قريب من هنا



ـ وما رأيك في .. في عش بعيد نوعا ما ؟
ـ ماذا تعني ؟
ـ عش في سوريا ، مثلا ؟
ـ أي شيء تقصد ؟
ـ من أبوك لأخطبك إليه

سكتت الفتاة ، فقد شلتها المفاجأة ، والسؤال الذي لاتدري له جواباً .. لقد سألته لنفسها ولمن حولها مئات المرات ولم تحظ بردٍ عليه .. لكنها هربت منه في هذه اللحظة لتتذكر حلماً طاف بها منذ أيام .. لقد رأت نفسها على صهوة حصان ، يركض بها كالسهم ، وراحت تنكمش فوق السرج ، وتصغر وتصغر ، إلى أن تحولت إلى حمامة بيضاء ، ناصعة البياض ، ولم تعد خائفة من السقوط ، لكنها أيضا لم تكن قادرة على الطيران .. وفجاة ظهر فارس شاب على حصان أبيض ، طاردها ، ولحق بها ، ووضع يده عليها ، واحتضنها بين أصابعه ، في ذات اللحظة التي امتدت فيها يد ماتوقظها من حلمها ، وتحكي له مارأت ، فيقول لها ساخراً :

ـ أنت تريدين أن تتزوجي فارساً !

ترد في ثقة : وهل ترون في ذلك عيباً ؟ !
يتردد لحظة ، ويقول : أحلامك واسعة ، وعريضة ..
ومرة أخرى تستيقظ «سميراميس» من غيبتها عما حولها حين ارتفع صوت الفارس من جديد ، يكرر السؤال :

ـ من أبوك لأخطبك اليه ؟
ـ من قبيلة في هذا الحي ..
ـ خذيني إليها !

ويقتفي الفارس أثرها ، ويمضي من ورائها ، والأفكار تلهث في رأسه
ووصلا الى القبيلة ويذهل الفارس الشاب ، ويروح يستقصي قصتها ، ويسأل عنها وعن خلقها وذكائها فيمتد حونها ، ويتغنون بها ، ولا يجدون فيها عيباً .. وينبهونه إلى أن أحلامها واسعة وطموحاتها كبيرة ، وبلا حدود ، وأنهم لايدرون إلى أي مدى تذهب بها ، وهو يرى بزواجه منها يحقق لها الكثير مما يرضي أحلامها و آمالها و أمانيها ، ويعلن أنه يقبل الزواج منها برغم كل شيء !
كانت المفاجأة كبيرة : الفارس الشاب ضابط آشوري كبير ، وهو حاكم سوريا من قبل «نينوس» ملك آشور .. لكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يتقدم بطلب الزواج من «سميراميس» وكان أن أقيم حفل كبير ، دقت فيه الدفوف ، وغنى المطربون ، وأكل المدعوون وشربوا ورقصوا ، وشارك في ذلك جند القائد ، وقبيلة الفتاة ، وكانت تبدو على الجميع علامات الفرح والسرور ، فمن كان يتصور أن حلم سميراميس سيصبح حقيقة بهذه السرعة ، وبهذا الاسلوب ؟ ! إن بنات الحي يحسدنها على هذا الضابط الشاب ، الذي تتمناه كل منهن لنفسها .. لقد صارت سميراميس زوجة ، هل يرضي ذلك أحلامها ؟ كان السؤال الذي يراودها دائما ويرن في أذنيها : وماذا بعد ؟ !

- ٥ -

(الجندية)

تزوجت سميرأميس من الضابط الشاب «اونيس» وبقيا معاً بين «قومها» بضعة أيام ، قبل أن يبدأ الاستعداد للرحيل الى سوريا .. وكان هناك أمر من الملك ألا يصطحب الضباط والجنود النساء في ترحالهم وسفرهم .. ولقد نسي الشاب ذلك في غمار حماسته للزواج من هذه الحمامة الجميلة الوديعة ، وبات عليه أن يجد حلاً لهذه المشكلة .. وقد اقترح البعض أن يتركها حيث هي بعض الوقت ، ثم يعود بعد حين لكي يأخذها إلى بيته ، لكنه رفض ذلك ، فهولا يريد أن يفارقها ..

وعندما طرح المشكلة على «سميرأميس» ابتسمت ، وكشفت عن موهبة كامنة ، وهي قدرتها على أن تبتكر الحلول ، وتبتدع سبل الخروج من المآزق ، بأيسر الوسائل ، وأسهل الطرق ، مما أذهل زوجها ، وجعله يتطلع إليها في إعجاب شديد ..

قالت له : هل تعرف أني أحسن ركوب الخيل ؟

- لا .. لكن ماعلاقة هذا بموضوعنا ؟

- عليك أن تعدَّ لي ملابس جندي ..

وفتح عينيه وقد اطلت منهما الدهشة ، إذ أدرك ماترمي إليه ، وفهم كيف يمكن أن تكون معه من دون أن يخالف أوامر الملك .. وبعد وقت قصير لبست سميرأميس ثياب الجندية ، وقفزت إلى ظهر الحصان ، وقد وضعت خوذة فوق رأسها ودرعا على صدرها ، وبذلك لم يعد هناك مايمكن أن يكشف عن شخصيتها ، ولم يتعرف عليها الجنود أنفسهم ، خصوصاً وقد أعلن القائد أنها الحارس الخاص به تفارقه أبداً ، بل هي دائماً وراءه ومعه ، وبجانبه .

ومضت الفرقة في طريقها إلى سوريا ، ولم يعرف المحيطون بالضابط الشاب سر هذا الجندي الصامت ، الذي يلازم القائد مثل ظله .. وعندما حدثت بعض المناوشات على الطريق كان واضحا أن هذا الجندي شجاع ، ثابت ، وكأنه خاض عشرات المعارك من قبل ، فقد ناوروداور وقاتل بسيفه ، وشارك في دحر المهاجمين ، الأمر الذي جعل الجنود يتساءلون عمن يكون ، لكن قرب وصولهم إلى مدينتهم شغلهم عن الحديث عما دار في المعركة ، وصرفهم عنها .

وعندما وصلوا تنبهت سميرأميس أن الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، كانت معها طوال الطريق ، وأنها ظلت ترفرف من فوقها من دون أن تلفت أنظارها ، أو تتنبه لوجودها .. لذلك لوحت لها تحييها ، فنزلت الحمامة إليها وحطت على كتفها ، ومسحت جناحها في خدها ، ولمس منقارها شفتي «سميرأميس» المبتسمتين .. ولم يلحظ أحد هذا الذي جرى ، سرعان ماعادت الحمامة إلى الفضاء ، تطير مرافقة الجند إلى أن دخلت سميرأميس بيتها ، وساعتها حطت الحمامة على نافذة ، تلتقط أنفاسها وتستريح بعد هذه الرحلة الطويلة المرهقة ..

وتطلعت سميرأميس من النافذة ، وأطلت على البحر الابيض .. كانت هذه أول مرة تشهد فيها بحراً .. هالتها المياه التي تمتد بعيداًإلى الافق ، وبلا حدود ومن غير شاطىء آخر مثل دجلة والفرات .. وراحت تحدق في البحر .. وماذا يخفي في أعماقه السحيقة ؟ ! وأحست برغبة شديدة في أن تلقاه ، وتلقي بنفسها بين مياهه ، وتتحدث إليه ، وتستمع له ، وهمست لنفسها :



ـ سيتسع الوقت لكل هذا فيما بعد !

وكما تعودت سميراميس أن تجلس في ظل نخلة أو شجرة تطالع الصحراء ورمالها ، بدأت تنظر للبحر ومياهه ، لتحلم في يقظتها ، وبرفقتها حمامتها البيضاء ، الناصعة البياض التي لم تعد وحيدة ، فقد لحق بها سرب كامل ، قادم من بلاد آشور ليرعى الابنة والصديقة ، والحبيبة «سميراميس» .. وكم أسعدها قدومه ! ! وطابت لها الحياة في سوريا ، وأحست أنها قد بدأت تضع أقدامها على طريق تحقيق آمالها العريضة ، برغم انها ظلت تعيش حياة متقشفة ، كتلك التي كانت تعيشها في آشور ، واستمرت داخل أسوار حديقة القصر تمارس ركوب الخيل ، وتتدرب على المبارزة ، وفنون القتال ، وزوجها سعيد بتدريبها ، يريد أن يظهر أمامها مهارته ، وقدرته ، وبراعته .. ووجد أن ذلك أهتمام مشترك بينهما يزيد ارتباطهما ، ويجعلها أكثر تعلقاً به ، فمضى يعلمها كيف تستعمل القوس والسهم ، وكيف تضرب بالرمح وكيف يصبح السيف ألعوبة في يدها .. وتجاوزت كل هذا ، إلى ما يمكن أن تفعل إذا لم يكن معها سلاح على الإطلاق ! .. إنها تتدرب على المصارعة ، وعلى إجادة الضرب باليدين والقدمين ، مستخدمة ذكاءها في الإيقاع بخصمها ، وهنا كانت تبز الجميع ، برغم ماهو معروف من أن ذلك حرفة الرجال ، لكنها لم تقتنع قط بأن هناك فارقاً ، وكانت تتعامل وفق هذا في أمور الحياة كافة .. ترى ، بماذا كانت تحلم «سميراميس» في هذه المدة ؟

لقد كبرت معها أحلامها ، وأصبحت أكثر اتساعاً .. لقد صارت تحلم بالفيالق والجنود تقودهم ، تخفق من فوق رؤوسهم رايات الانتصار ، وهي تكتم تلك الأحلام حتى عن زوجها ، وإن أفلتت منها بعض عبارات تشير الى أمانيها ، الأمر الذي يضحك له الضابط الشاب ، فهو يتصور أن الامر لايزيد على أن يكون أحلاماً وآمالاً ستبدد لدى خوض أول معركة حقيقية لكن «سميراميس» ظلت تحلم ليل نهار ، يعينها على ذلك وقت متسع تقضيه وحدها مع البحر ، أومع حمامها الوافد من آشور ، وكان زوجها الشاب يضطر للغياب لتفقد بعض المواقع ، والقلاع ، والثغور ، إذ حدود المملكة ممتدة ، الطامعون كثيرون ، ولابد من السهر والحرص على أطراف بعيدة تلقى هجمات بين حين وآخر ، لابد من ردها على أعقابها ، خصوصاً وهناك حدود مشتركة مع مصر ، وفراعنتها ينتهزون الفرصة للاغارة على البلدان القريبة لتحصيل الجزية ، وتسجيل الانتصارات على جدران المعابد ..

وذات صباح وردت من ملك آشور (نينوس) رسالة عاجلة مهمة .. إنه يأمر الضابط الشاب (اونيس) حاكم سوريا أن يسارع بجيشه ، ليساعد في حصار مدينة (بكتيريانا) ، وما كان الشاب راغباً في ترك موقعه ومكانه ، ولا كان يريد أن يشارك في هذه الحرب ، ولا هو يستطيع أن يفارق الحمامة البيضاء «سميراميس» فأطلعها على الأمر لعلها تجد سبيلاً لتفادي تنفيذ هذه الأوامر ، لكنها راحت تشجعه على الاستجابة ، لكي يحقق المزيد من الانتصارات والفتوحات ، وليرتقي ويكبر في عين الملك ، وعندما سألها :

ـ وماذا عنك ياسميراميس ؟

ـ أنا جندية في جيشك ، معك أينما تذهب .. وكان أن أصطحبها معه ، والسؤال الدائم يتردد في رأسها :

ـ وماذا بعد ياسميراميس ؟ !

ـ ٦ ـ (المحاربة)

جيش أشور بقيادة الملك «نينوس» يشن الغارات واحدة بعد الأخرى ، لكنها تحبط عند الحصون المنيعة ، ويطول الحصار من دون جدوى .. وكانت قلعة المدينة تصيب المهاجمين إصابات مباشرة ، لذلك آثر الملك أن يباعد ما بينه وما بينها ، وفضل أن يهاجم المدينة من عند السهل الواقع على النهر ، وتلك أضعف نقاط دفاعها ، غير أن اقتحام المكان لم يكن سهلاً ولا ميسوراً ، فما من ثغرة هناك ، بعد أن تحول الجند لتحصين هذه البقعة ، ونجحوا في رد الهجمات المتوالية ، التي لم تستطع الوصول إلى أسوار المدينة .. وكان الضابط الشاب وزوجته ، سميراميس يشاركان في القتال مشاركة فعالة ، ولكنهما يعودان إلى خيمتهما مخذولين ، بلا أمل في النصر ، برغم كل ما أبدياه من ضروب الشجاعة والجسارة .. وفي كل ليلة تأوي سميراميس إلى فراشها الخشن وهي ترجو أن تأتيها الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، في أحلامها لكي تهديها إلى السبيل لاقتحام هذه المدينة ، وطال الانتظار .. لكن ذات ليلة قمرية رأت سميراميس ـ فيما يرى النائم ـ الحمامة البيضاء ، قادمة ترفرف من ناحية القلعة ، وعادت من حيث أتت من دون أن تصيبها سهام المدافعين التي تناثرت من حولها .. وعندما صحت سميراميس من نومها أدركت ما تريد الحمامة أن تقوله !

تسللت سميراميس من فراشها ، وتركت زوجها يأخذ قسطه من الراحة ، ومضت الى أرض المعركة ، تجوس خلالها ، وعلى ضوء القمر سارت تجاه القلعة ، وتطلعت إليها ، وإذا بالحمامة البيضاء ، الناصعة البياض ، ترفرف فوق جانب من جوانب السور الضخم ، وتروح وتغدو عند هذه البقعة ، وراحت «سميراميس» ترقبها في انتباه شديد ، ثم ألقت بنظرةٍ على الطريق الموصلة لهذا المكان ، وقد تناثرت فيها قطع كبيرة من الاحجار ، وكان واضحاً من الهدوء الذي يسود القلعة أن حراسها قليلون ، ويبدو أن ضباطها وجنودها قد غادروها ليحرسوا النقاط الضعيفة عند السهل المنخفض .. وقضت سميراميس وقتاً طويلاً وهي تدرس الموقف ، قبل أن تعود إلى خيمتها لتجد زوجها قد بدأ يستيقظ من نومه ، ويتقلب في فراشه في قلق ، وقد أحس بها عند رجوعها ، فسألها : أين كانت ؟ فروت له في إيجاز مارأته في حلمها ، وأطلعته على ما كشفته خلال تجوالها قرب القلعة ، وطلبت إليه أن يمدها في اليوم التالي ببعض من جنود ممن يجيدون تسلق الصخور والأسوار ، لأنها قررت أن تتسلل عبرها إلى داخل المدينة ! وكان الضابط الشاب يشعر تجاهها بالقلق ، ويخاف من اندفاعها وجسارتها واقتحامها للمعارك من دون رويّة ، وفي عنف شديد ، وكم من مرة نبهها إلى أن تتأنى وتهدأ وكم سألها ألا تغامر بنفسها ، خصوصاً وقد رصدها الاعداء وحاولوا أكثر من مرة أن يغتالوها بأسهمهم ، بل نجحوا في تسديد سهم أصابها في كتفها وإن كان الجرح ـ من حسن حظها سطحياً وطفيفاً ، ولكنها لم تستمع إلى مثل هذه النصائح ، إذ كانت تود أن تؤكد شجاعتها واستبسالها ، وتتوق إلى تسجيل انتصاراتها .

وافق زوجها على طلبها بعد نقاش حادٍ بعض الشيء ، ومضت مع الجند قبل أن يظهر القمر في الليلة التالية ، وهي تقتفي أثر حمامتها البيضاء ، الناصعة البياض ، وبدأت مغامرة رهيبة لو أن حراس القلعة وجنودها تنبهوا لها لأبادوها ومرافقيها ، غير أنها راحت تتنقل من حجر إلى حجر في خفة وبراعة ، كأنها قطة ، وكان الجنود يتحركون في صمت وهدوء شديدين ، وهم

متحمسون لمهمتهم حماسة منقطعة النظير ، وحرس القلعة القليلون يغطون في نومهم ، فما تصوروا قط أن أحداً يخطر بباله أن يهاجم قلعتهم الحصينة ، وإذا ما فكر في ذلك فالأسوار عالية ، وهناك مجرى ماء لابد من عبوره ، ثم بعد كل ذلك تنتظر النبال والأقواس والأسهم أولئك القادمين لتقضي عليهم ، وإذا تجاسروا وتقدموا أكثر فان الحراب الطويلة ستمزقهم شر ممزق ، ومن بعدها سيوفهم الباترة ..

ظلت سميرأميس وفرقتها ساعات طويلة يتحركون حتى وصلوا الى مجرى الماء ، وأقاموا من فوقه جسراً من جذوع النخيل ، عبروه ثم راحوا يتسلقون الأسوار والحراس غافلون ، وكلابهم أكلت اللحم الذي ألقى به المهاجمون وبعد لحظات لقيت هذه الكلاب مصرعها .. وكان واضحاً أن سميرأميس قد أعدت لكل شيء عدته ، ومع أول خيوط الفجر كانت قد اعتلت وزملاؤها أسوار القلعة وقفزوا إلى داخلها ، وأعملوا سيوفهم في الحراس ، حتى باتت القلعة في أيديهم .

وأعطت البطلة الإشارة المتفق عليها إلى زوجها وجنوده وفتحت لهم الأبواب ليتدفقوا لفتح القلعة ، وبذلك أمكن لهم السيطرة على المدينة ، وأصبحت مابين النيران التي تصبها عليهم القلعة ، والهجوم الساحق الذي يقوم به ملك آشور وقواته من ناحية السهل والنهر .. فاستسلمت المدينة ورفعت الأعلام البيض ، ودخلت القوات الآشورية تحمل رايات النصر ، وتعزف موسيقى الفتح المبين الذي تم بفضل سميرأميس .

وعندما استقر المقام بالملك في اكبر قاعات القلعة وجاءهُ قادة المدينة مستسلمين ، ينتظرون مصيرهم ، لم يهتم لهم كثيراً ، فقد كان يفكر في هؤلاء الأبطال الذين نجحوا في اقتحام القلعة ، وكان كل همه أن يعرف البطل الذي قادهم وتسلل بهم في هذه العملية الذكية الجسور فاستدعى الملك الضابط الشاب قائد الفرقة القادمة من سوريا ، والتي قامت طليعتها باحتلال القلعة ، وفتح أبوابها أمام الباقين ..



ـ ٧ ـ (زوجة الملك)

غمر الملك «نينوس» البطلة المحاربة سميراميس بهداياه وعطاياه ، معبراً عن إعجابه وتقديره لدورها في فتح المدينة ، ورأت سميراميس ان في ذلك تشريفا لها ، ولزوجها وتعبيراً عن الرضاء السامي عنها

قال الملك للضابط :

ـ أريد أن أستعرض هؤلاء الابطال ، وأشد على يدهم ..
ـ هم يامولاي أدوا الواجب الذي عليهم لا أكثر !
ـ بل لابد لي من أن أشكرهم وأحييهم بنفسي ..

وقام الضابط الشاب بتنظيم الأبطال الذين اقتحموا القلعة في صف طويل ووضع سميراميس في نهاية الصف ، ثم جاء الملك يسير في خطوات وئيدة يسلم بيده على كل جندي ، إلى أن جاء دور سميراميس ـ وهي في ثياب الجند ـ وعندما صافحها أحس بنعومة يدها ، ورقتها ، برغم مافيها من قوة وصلابة ، فرفع بصره إليها ، وتملى في عينيها ، وحملق في وجهها ، وعندما بدأ يوجه إليها الحديث ويدير معها الحوار تنبه لصوتها ، وأدرك انها «امراة» ، وقد اذهله الامر ، فنظر إلى زوجها متسائلاً مستفسراً محققا ، ولم يكن أمام «اونيس» الا أن يعترف قائلاً :

ـ إنها زوجتي يامولاي !
ـ ماذا ؟ !
ـ نعم ، هي زوجتي «سميراميس» !

كانت المفاجاة غير اعتيادية ، ورغب الملك ألا يطول الموقف أمام صف الجنود ، الذين كانوا لايقلون عنه دهشة وذهولاً ، وقد صرفهم باشارة من يده ، ودعا الضابط الشاب وزوجته إلى طعام العشاء على مائدته في تلك الليلة وكان من الواضح أن سميراميس برغم تعبها ترحب بالقبول ، وأبدى زوجهاابتسامة ، رسمها على شفتيه ، وهو يتمتم بكلمات الشكر ، ويصطحب زوجته ، وينصرفان عن المكان في خطوات متعثرة .

وذات ليلة رأت سميراميس في أحلامها أن صقراً يهاجم عش حمام ، وأن الصقر ازاح ذكر الحمام ليقع من عالٍ ، واختطف الطائر القوي الحمامة القابعة في العش ، تنتظر في غير خوف أوقلق .. وعندما دققت النظر في هذه الحمامة وجدتها شبيهة بها .. واستيقظت في ذلك الصباح متعبة ، مرهقة ، فلم تجد زوجها في الدار .. ولم يعد حتى المساء .. وتناقل الناس خبراً وصل إلى مسامعها .. لقد مات الضابط الشاب .. كيف ؟ !خبر فاجع وسؤال مؤلم لم تجد الجواب على سؤالها إلاّ بدموعها ، إذ إنها لاتنسى له انه التقطها من الصحراء المجدبة ، فتاةً غريرة بسيطة ، ليصنع منها زوجة له ، وليجعلها تعيش في سوريا حياة طيبة ، كما انه عاونها على أن تصبح جندية شجاعة جسور ، وفتح أمامها الطريق لتقتحم القلعة وبذلك استسلمت المدينة ، وكان ذلك

هو السبيل الذي تعرفت به إلى الملك ..

وبعد زمن على انتهاء أيام الحداد أصبحت سميرأميس زوجة للملك «نينوس» وأقيمت الأفراح والليالي الملاح في كل آشور ، وانتقلت سميرأميس إلى القصر الملكي ، الذي رفرفت من فوقه حماماتها ، وبينهن الحمامة البيضاء ، الناصعة البياض .. وشعر الملك بانه قد حقق حلماً من أحلام حياته بزواجه من هذه الفتاة الرائعة : الجمال ، والذكاء ، والشجاعة ، وأحس أن العرش يليق بها ، وأن جلوسها عليه إلى جواره أمر طبيعي ، تستحقه إزاء مواهبها المتعددة ..

ومما لاشك فيه أن سميرأميس كانت فرحة مبتهجة ، لكن الذين حولها كانوا يتوقعون أن تكون سعيدة إلى أقصى حد ، لكن فرحتها وبهجتها كانت مشوبة بلون من السرحان ، وكانت عيناها تحملقان إلى آفاق بعيدة ، وتبدو حالمة بشيء ما ، لا أحد يستطيع أن يدركه أو يتصوره ..



ويسالونها أن تفيق إلى نفسها ، فلا يحدث في كل يوم أن تتزوج فتاة من ملك البلاد ، وليست هذه لحظة الأحلام ، ربما تكون أقرب الى ساعة تحقيق الأحلام ، ويجدربها أن تحتفل بها ، إذ ما من فتاة إلا وطاف بها مثل هذا الأمل وربما همست أنها ما حلمت بذلك ،

ـ وهي في هذا صادقة ـ لانها فيما يبدو حلمت بما هو أكثر من هذا ، وتضيف :

ـ من كان يتصور أن فتاة الصحراء الوحيدة ، رضيعة الحمام ، يمكن أن تجلس بجانب الملك على العرش ؟ !

ويضحكون .. ستعيشين في التبات والنبات ، وتخلفين ..

وتقاطعهم : ملايين النساء يتزوجن ، ويخلفن ، وينجبن !

ـ وماذا عنك أنت ؟ !

ـ لاأدري .. أنا سميرأميس ، شيء آخر .. لست أراني سلعة ، تنتقل من يد حاكم ، إلى يد ملك ..

ـ بماذا تحلمين ؟

ـ نفضت عني أحلام الليل ، وأحلام النهار .. الذي يضنيني كيف تتحقق الأحلام على أرض الواقع ..

الحياة الجديدة جميلة .. ربما تكون أجمل من الحلم بها .. السلطة والسلطان في يديها ، والملك لايدخر وسعاً لارضاء الحمامة الجميلة ، الذكية ، ولا يرفض لها طلباً ، ويحقق لها كل ماتريد ، وفوق ماتريد .. ومما لاشك أن سميرأميس قد بدأت تستثمر ذكاءها الفذ ، وبدأ الناس يشعرون بذلك ، وهم يدركون أنها وراء ذلك التغيير ، فأعمال البناء تقوم على قدم وساق ، وأخبار الانتصارات والفتوحات تتوالى ، فالمملكة واسعة ، والذين يحاولون أن ينقضوا على أطرافها كثيرون ، وما من سبيل للمحافظة عليها إلا بالقوة ..

وكان الذين يرقبون سميرأميس يرون أنها تتغير كثيرا عما في الماضي ، مازالت تسرح طويلاً ، والاحلام تواتيها ليلاً ، وهي تصحو مع كل صباح على حلم جديد ، وكان المُتصوَّر أنها قد حققت كل أحلامها ، وأنها قد حققت الآفاق التي طمحت إليها ، لكن مايجري تحت سمعهم وبصرهم يؤكد انها مازالت تحلم بالكثير ، ولابد أن البعض قد تجاسر همساً وسألها في رقة :

ـ هل مازلتِ تحلمين بالحمام ؟ هل تزورك في أثناء نومك ؟

وتضحك سميرأميس ، وتتهرب من الإجابة خصوصاً إذا ما كان الملك (نينوس) قريباً منها ، فهي أمامه تبدو يقظة سعيدة ، ولا تحكي قط عن الأحلام ، ولا تتحدث عن الحمام ، بل تدع له اختيار مواضيع الحديث ، ولا تفرض عليه شيئاً ، بل هي تلقي بأفكارها في سلاسة وهدوء ، ولا تشعره بانها تود لرأيها أن ينفَّذ ، أو ترغب في أن تسود وجهة نظرها .. إنها في ذكاء تبدو بلا رغبات أو مطامع ، وتظهر مستسلمة لماجريات الحياة متقبلة لها ، راضية باقبال الملك عليها ، وبزهوه وفخره بها ، وكأنما قد تحقق لها كل ماتحلم به كل فتاة .. ولكنها في وحدتها كانت تبدو غير ذلك .. هي تفكر ، وتحلم ، وتعقد جبينها ، وتسند رأسها على كفها والخواطر تلهث في رأسها ..

- ٨ -

(الملكة)

جلست الوصيفات من حول «سميرأميس» زوجة الملك ، وكثيراً ما كانت تغفل عنهن وتنساهن وتسرح ، وتحلم ، وما من أحد يدري أويدرك إلى أين تطوّح بها طموحاتها ، وتمضي بها آمالها ..

- مولاتي ، ماذا بك ؟

وتتنبه «سميرأميس» وترد بسرعة كأنما تخشى أن تقرأ واحدة من الوصيفات أفكارها :

- لا لا .. لاشيء !

وتسكت ، وتسرح ، إنها تفكر ، وتنصح ، وتشير ، وتدبر ، لكنها ليست صاحبة الكلمة الأخيرة .. هناك حدود ، وقيود ، وكل مالها من قوة وعظمة إنما تستمدها من أنها بجانب الملك بجواره ، لا أكثر ولا أقل .. إن الناس يعرفون مدى ذكائها ، وقدراتها الواسعة ، وأفكارها العظيمة ، لكنها من دون سلطة أو سلطان ..

وتحلم بالا تكون ظلاً ، والاحلام بلا نهاية ، بلا افق .. هناك دائماً مجال للحلم الواسع العريض ، والحلم بالحكم يؤرّقها .. وهي تجد نفسها حين يلتف من حولها حمامها يناغيها وتناغيه ، وتشعر معه انها ملكة ، اما مع الناس فهي لاتزيد على أن تكون «زوجة الملك» ، لا أكثر ولا اقل .. ترى ، هل سمعت عن «حتشبسوت» و«كليوبترا» أم سمعوا عنها ؟ ! .. لاندري ، لكن احلامها بدأت تصبح شيئاً ملحاً ، وكم من مرةٍ استدعت إليها المنجِّمين ليحدثوها عما ينتظرها ، ولكنهم في كل مرة يغمغمون بكلمات غير واضحة ، تفهم منها أنهم يجاملونها بقولهم أن نجمها في صعود ! وأنه سوف يضيء ويلمع !!

وهي لاتصدق ما يقولون ، لان الناس في الحرب والسلم ، في الشوارع والميادين ، في الليل والنهار يهتفون لملكهم ، وليس لها .. إنه صاحب الانتصارات ، وهو وراء كل توفيق يصيب البلاد والناس ..

ولكن ذات صباح صحا الناس ليسمعوا بالخبر الحزين .. لقد رحل الملك عن الدنيا .. توفي .. وتولت سميرأميس العرش ، وأصبحت ملكة متوَّجة ، لها جيشها ورجالها ، وعيونها التي ترى ، وآذانها التي تسمع ، وارتفعت الهتافات باسمها عالية ..

- سميرأميس .. سميرأميس .. سميرأميس !

وانطلق الناس إلى الشوارع والطرقات يتغنون باسمها ويرقصون طرباً في حين امتلأت السماء بالحمام يطير هنا وهناك ، وهديله يعلو .. ابنته صارت ملكة .. وأصبح كل شيء في يدها وتحت أمرها .. ولا أحد ينازعها السلطان في كل آشور .. لقد صعد نجمها بحق ، هذه الفتاة التي تحلم .. وتحلم ..

هاهي تجلس وحدها على العرش .. وتسرح ، وتحلم .. وتدخل الوصيفات إلى القاعة فلا تحس بهن ولا تتنبه لواحدة منهن اقتربت منها هامسة ..



- ها قد أصبحت «ملكة» يامولاتي ، بماذا تحلمين ؟
وتبتسم سميراميس ابتسامة حلوة ، وتقول :
- أريد أن أصنع الكثير من أجل آشور ..
- وماذا تبغين لنفسك ؟
- لنفسي ؟ ! .. لاشيء ..لا لا ، بل هناك أمر مهم ..
- أي شيء هو ؟
- أرجو ألا تسخروا منه أو تضحكوا له ..
- من يجرؤ ؟ من يستطيع ؟
- أريد أن أتوسل إلى شعب آشور ..
- تتوسلين ؟ ! جلالتك الملكة ، تأمرين !
- لا تضعوا على لساني كلماتكم .. أعرف جيداً ما أقوله .. إني أتوسل لشعب آشور أن يقبل رجائي ..
- ماذا تريدين ؟
- أن تبقوا على حياة الحمام .. وألا تذبحوه ! وتتطلع إليها عيون الوصيفة في دهشة ، وتضيف «سميراميس» :
- لقد أطعمني وأرضعني ، وأريد أن أرد له فضله ..
وينتشر الأمر في كل أرجاء آشور ، ويتهامس الناس :
- ما أرق أحاسيسها ..
- يالقلبها الحنون ..
- مشاعرها طيبة !

وأمرت الملكة «سميراميس» فور هذا بأن تدق الطبول ، وأن تستعد الجيوش .. المملكة المرهوبة الجانب هي التي تستطيع أن تبقى وتعيش .. البلاد القوية هي التي يمكنها أن تعيش عصر الغابة ،

الحمام يحمل رسائل «سميراميس» إلى كل أطراف المملكة ، والجيوش تستعد على قدم وساق ، ولا أحد يدري إلى اين ستقودها الملكة الذكية الجميلة ، والحماسة تملأ الجنود ، والشباب يقبل على الالتحاق بقواته المسلحة ، والبلدان البعيدة والقريبة ترتجف فَرَقاً وخوفاً ، وتتساءل ..

- هل تتجه الملكة بجيوشها شرقاً أم غرباً ؟ !

إن سميراميس تعلن في كل لحظة أنها تستكمل مسيرة الملك العظيم زوجها الراحل (نينوس) ، والناس تبتسم في حيرة لدى سماعهم ذلك ، لكنهم مشغولون بتعبئة الجيوش ، وإعداد خطوط تموينه ، وتجهيز الأسلحة .. إن عصر الفاتحة يفتح صفحاته ..

- ٩ -

«الفاتحة»

كانت سميرأميس ـ كعادتها ـ جالسة تحلم .. لم تكفها أحلام الليل وهي نائمة ، وها هي تقضي مدة طويلة من يقظتها وهي لاتدري بما حولها ، إذ هي تنطلق بخيالها إلى آفاق بعيدة .. وأيقظتها دقات السيوف من فوق الدروع واسمها يترنم به الجنود ، ويهتفون في ساحات القصر :

ـ سميرأميس .. سميرأميس ..

افاقت الملكة ، وكان لابد أن تخرج إلى الشرفة لكي تحيي هؤلاء الذين يرددون اسمها في جنون ، وما إن ظهرت حتى كادوا يفقدون صوابهم ، وارتفعت صيحاتهم إلى الدرجة التي ازعجوا الحمام الذي يرفرف في سماء المدينة ، فراح يرفرف ويعلو ، ويعلو ، وعيناها تتابعانه في اهتمام كبير ، وموسيقى الهتاف باسمها يتسلل من أذنيها ، إلى قلبها ، فتحس بسعادة غامرة ، وتشعر بالزهو ، وتكاد تطير بهجة وفرحاً لتلحق بالحمام ..
وكان لابد لها أن تشير إليهم ليصمتوا ، فمدت ذراعها البضّ الابيض على آخرها ، وبسطت يدها وحركتها كانما تربت عليهم ، وإذا بالسكون يسود ، حتى إنهم كانوا يسمعون رفيف أجنحة الحمام ، وقالت في صوت شق أجواز السماء كأنه السيف البتار ..

ـ هيا .. إلى بلاد الفرس ، وآسيا ..

ومن جديد علا الهتاف ، ودقت طبول الحرب ، وزحف مائة الف من جنود آشور ، تقودهم «سميرأميس» ، وراحوا يجتاحون المدن والقرى ، ويكتسحون كل عدو يقف في طريقهم .. وراحت تجوب أقطار آسيا ، وهم من ورائها يطيلون النظر إلى سيفها اللامع .. يشعر الجيش بالتعب ، ويحس بالعطش ، ويتوقف قليلاً في مسيرته ، فما إن تمر بين الصفوف حتى تبعث رؤيتها عزيمتهم القوية ، وتلقي النظرة الثاقبة فتنهض همتهم ، ويندفعون كالأعصار ، يثبتون رايات آشور على كل مدن الشرق القريبة ، والبعيدة .
وإذا ماأسلم الجنود جنوبهم للرقاد ، وناموا ، راحت تجوس خلال معسكراتهم حالمة كحمامة ، رقيقة الخطو ، هادئة الحركة ، تكاد عيناها الوضاحتان الجميلتان تضيئان الظلام من أمامها ، وهي تواسي الجرحى بابتسامة حلوة ، تشع عذوبة وحناناً ، وإذا بالجرحى والمصابين يشهرون حرابهم وسيوفهم مع صباح اليوم التالي ، حين تشتعل الحرب ، وعندما تروح تلقي أوامرها بصوتها الحاد القاطع ، كسيفها ..
وتحين لحظات انتصار ، وتتوجه بكلماتها التي هي أحلى نغم يسمعه الجيش في أثناء انطلاقه ، ويهزهم صوتها ـ كأنه الانتصار ذاته ـ وهي تقف في مكان مرتفع تهتف في أبطالها :

- ياجنود آشور ..
يارجال ، ياأبطال ..
ها أنذا سميرأميس ، أحبكم من كل روحي ، أحبكم فرداً فرداً ، بكل ما يحتويه قلبي من مشاعر !

وتعزف الأبواق ألحان النصر ، وتعلو الهتافات صاخبة ، وترفرف الرايات شامخة عالية ، هناك عند الحمام الذي يطوف من حولها كأنما يحييها ويحميها .. وكل جندي يحس بعبارة الحب موجهة لشخصه بالذات .

يالمجدك ، ياآشور .. فما من ملك غزا كما فعلت «سميرأميس» ، لقد ركعت فارس أمام الحضارة الوافدة ، والقوة القادمة في فتوةعارمة ، وتهالكت الممالك كلها ، وما عادت بقادرة على أن تقاوم هذه الحمامة التي أصبحت صقراً ينقضُّ بكل عنف ، فتشتت الجيوش ، وتهزم الأعادي ، وتعلي من قدر آشور في كل الدنيا ..

وراحت سميرأميس تُقيم نُصْباً تذكارياً في كل بقعة نائية تصل إليها ، ليبقى شاهداً ودليلاً على عظمة آشور ، ومجدها وروعتها ، والقواد من حولها قد سحرتهم بجاذبيتها وعبقريتها ، وخُططها العسكرية التي ترسمها ، فإذا بها تُحقِّق الانتصارات ، بل المعجزات .. وعندما دانت لها كل أقطار آسيا المعروفة في تلك الايام الغابرة ، بدأت تستعدّ للعودة إلى عاصمة مملكتها ، وفي ذهنها تلمح أفكار ..

ويتحول الجنود البواسل إلى رجال بناء وعمل .. يريدون بلاداً ومُدُناً تليق بهذه الامبراطورية الواسعة الأرجاء الفسيحة الأنحاء .. وتُقَرِّر«سميرأميس» أنْ تبني أجمل مُدُن الدنيا وأعظمها ، وهنا يأتيها المهندسون من كل حَدَب وصوْب ، تأمر فيرسمون بخِيالاتهم العريضة البنايات والعمائر ، ويشقّون الشوارع ، ولايَنسَوْن الحدائق والبساتين ..

لقد عادت من فتوحاتها بذهب وفِضّة ، وبالغنائم التي تكفي آشور سنين طِوالاً تنعم في غضونها بالرخاء والبناء ، ويسود السلام ربوع البلاد من أجل وَفْرة في الإنتاج ..

وتأمُر أنْ يُبنى لها قصران على ضفّتي الفرات ، يربط بينهما من فوق النهر جسر أنيق جميل ، من خشب الأرز والسرو يبلغ عرضه عَشرة أمتار ، وأقامت على ضفّتيه طريقاً عريضاً ، وأمرت أنْ يُحفَرَ من تحت المياه نَفَق تستطيع من خلاله أنْ تنتقل بين القصرين من دون أنْ تُضْطرَّ إلى عبور النهر .. وأقامت معْبداً رائعاً للاله«بيلوس» .. ويجري العمل على قَدَم وساق .. لكن ذلك كله لم يكن يجعلها بغافلةٍ عن جيشها الذي صنع لها النصر في آسيا ، فراحت تُعيد تنظيمه ، وترتيبه . ولم يَفُتْها أنْ يستمر الجند في تدريبهم تَحسُّباً لما يأتي به المستقبل ، وهي لاتنسى كيف كانت الغارات على أطراف المملكة تحدث بين الحين والحين .. نعمْ ، لقد صارت مرهوبة الجانب ، يُدوِّي أسمها في كل مكان فَيُثير الرعب والذُعر ، وماعاد أحد بقادر على أنْ يرفع سلاحه في وجه آشور ..

وُشغلت سميرأميس بكل هذا ، وظلت طَوالَ الوقت لاترغب في شيء إلاّ تحقيق هذا الحلم الذي راودها على مدى العُمُر : أنْ تكون ملكة متوَّجة ،

- ١٠ -

«فتح مصر»

كانت«سميرأميس» في قصرها ـ ذات صباح ـ تحلُم .. لقد شهدت أعمال البناء والتشييد ، ورَضِيت عنها كل الرضا ، إذْ تسير الأمور على ماتُحِب وتهوى ، لكنْ مازالت الأحلام تُراودها ، وسؤال يُلحّ :

ـ هل مازال هناك مجال للمزيد من النصر والمجد ، تحلُم به هذه الملكة الفاتحة ؟ نعمْ ، كان هناك الحُلُم الأكبر : مصر .. لماذا لاتمضي بجنودها إلى أرض الاهرامات والمسلّات ، والفنارات ، وبلد العلم والمعرفة وجامعة عين شمس ، مدينة الطِبّ والحِكمة وامحوتب ؟!

وتُلحُّ عليها الفِكرة إلحاحاً شديداً ، وتستدعي إليها قُوّادها وضُبّاطها وتطرح عليهم هذا السؤال :

ـ ماذا تَرَوْنَ في«السير» إلى«مصر» ؟!

ـ مصر ؟!

تعالت الهمسات بالكلمة ، ودارت رؤوسهم ، ولهثت فيها الأفكار والخواطر ، فالإجابة ليست يسيرة ، ولا هي سَهْلة .. نعمْ لقد انتصرت جيوش آشور في كل آسيا ، لكنَّ الأمر هنا مُختلف .. إذْ إنَّ الفراعنة في ذلك الحين كانوا قد سَجّلوا انتصارات كبيرة ، ونجحوا في اكتساب احترام الدنيا بما أقاموه وشَيّدوه ، وبما صنعوه مِن تقدُّم وحضارة ، وبما حققوه في مجالي العلم والمعرفة .. ثُمَّ إنَّ المِلكة«سميرأميس» لاتُريد أنْ تفقد ماسجّلته من نجاح ، ولا تَودُّ أنْ تخسر معركة واحدة بعد أنْ دوَّتْ نجاحاتها في كل الدنيا .. الجميع يُفكّرون قبل اتخاذ هذه الخطوه ، خصوصاً وكثيرون من بينهم عاشوا في الشام ، على حدود مصر ، وسمعوا بأخبارها ، والتقوا ببعض من أهلها ..

لكنَّ«الحُلُم» يُلحّ على المِلكة ، وفِكرة الوصول من«العراق» إلى«مصر» تُداعبها ، وتلوح لها أمنية تستحقّ السعي إليها والنضال من أجلها .. ولايطول الجدل بين الذين يُحيطون بها . فهم أيضاً يوَدّون أنْ يمضوا لا إلى مصر وَحْدها ، بل يرغبون في تجاوزها إلى الصحراء الليبية .. لكن هل يقدرون ؟ هل يستطيعون ؟

الصمت يُخيّم على الجميع ، ينتظرون كلمة سميرأميس أوْ إشارتها ، وقد ترامى إلى سمعها منذ بعض الوقت أنَّ مصر لم تَعُدْ كما كانت ، وأن هناك مشكلات يُعانيها الفراعنة وأنَّ خِلافات كبيرة تقوم في القصر ، وقد خَشِيَت ألّا تكون هذه الأنباء صحيحة ، فتورط بلادها في حرب طويلة لاتطيقها .. فرأت أن تبعث بالرُسُل والأعوان ليعودوا إليها بالخبر اليقين !

وجاءت الأخبار ، أنَّ مصر فعلاً تمرّ بظروف قاسية ، وكان أنْ أعطت سميرأميس الإشارة بالاستعداد .. ومن جديد راحت السيوف تلمع ، والهتافات الصاخبة تعلو ، والجنود يستعدون



لكي يمضوا غرباً .. وحانت اللحظة الحاسمة ، وخرجت سميرأميس على رأس جيوشها في طريقها إلى مصر .. ومّما لا شكّ فيه أنّها في الطريق إلى الشام قد تذكرت رحلتها الأولى إليها مع زوجها«مينونيس» ، فقد كانت هي البداية للمجد الذي تعيشه الآن .. ولَقِيت الجيوش حفاوة من البلدان والولايات التي مرّت بها ، فإنّ ذيوع صيت سميرأميس جعل منها أسطورة تتردد في كل الدنيا ، وأصبح من آمال كل الأقطار التابعة لها أنْ تحظى منها بالزيارة ، لذلك كانت الجماهير تخرج لتحيتها ، وتنثر من تحت اقدامها الزهور ، وتُقدّم لها الهدايا ، وتُعلن عن الطاعة والولاء ..

وصلت جيوش سميرأميس إلى حدود مصر ، وأستعدّ الجنود للمعارك المُنتظَرة ، وأذهلهم أنّهم لم يجدوا هناك مَنْ يستعدون إلى لِقائهم وقتالهم .. وفي اليوم التالي لوصولهم أقبل من مصرَ موكب صغير ، يضُمُّ الأمير«كيتاهور» وحاشيته ، وطلب أنْ يقابلَ الملِكة ، فقالت :

- مَنْ يكون ؟
- امير منف .
- ماذا يُريد ؟
- لاندري ..
- الا يخشى أنْ نأسرَهُ ؟!

وفي هذه اللحظة تعالى عزف جميل على قيثارة ، وصمت الجميع ، وأعطوا آذانهم للموسيقى ، فقد كانت عَذْبة شَجيّة ، ولم يكن هناك مَن يريد لها أنْ تسكتَ ، وما مِن أحد كانٍ يرغب في أنْ يُخدّش جمالها بكلمة أو همسة ، حتى«سميرأميس» راحت تُصغي في هدوء ، ولم تضِقْ بالنغم الذي لم يكن أحد يعرف له مصدراً ، بل كان واضحاً أنَّها تستمتع به ، بَرغْم أنَّ صاحبه لم يستأذنْها ، مما أثار دهشتها وحُبّ استطلاعها .. وما إنْ توقَّف العزف حتى تساءلت«سميرأميس» عن صاحبه ، وكان الردّ مُفاجأة أخرى .. إنَّه الامير كيتاهور نفسه .. تهتف سميرأميس :

- أدْخلوه ..

ويدخل الأمير ، رقيقاً ، وديعاً ، مثل نفحة عِطْر .. يخطو فلا تكاد أقدامه تلمس الأرض ، وينحني في أدب جمّ ، ثُمَّ يرفع رأسه من دون أنْ تتطلع عيناه إلى الملِكة الواقفة في مهابة وقوة .. وتأمُر بأنْ يُخلّيَ الجميع المكان ، ويتردد حُرّاسها ، لكنَّ كلماتِها كانت حاسمة .. فأنسحبوا بعيداً ، وهم يخشَوْن الغدر ، فطَمأنتهم بإشارة من يدها ، ساعتها خرجوا ، وأغلقوا من ورائهم الباب .. قال الأمير في صوت مُهذَّب ..

- جِئت يامولاتي أعرض - نفسي - رهينةً بين يديك ، ضماناً للجزية التي تفرضينها على بلادي !

هتفت سميرأميس في دهشة : ماذا ؟!

ـ نحن في ظروف لاتسمح لنا بالحرب ، ولا حاجة بنا إلى القتال ، ونَودّ أنْ يسودَ علاقاتنا السلام ، والوئام ..

ـ أليسَ في الأمر خديعة ؟!

ـ أيّة خديعة وحياتي رهينة بين يديك ؟

ـ هل يضمن ذلك أنْ تدفع بلدك الجزية ؟

ـ نعمْ .. أؤكّد ذلك لمولاتي ..

ـ لكنْ ، صارحني بالسبب الحقيقي لقراركم هذا ..

ـ فرعون عندما يخرج للقتال ولا تكفي رؤيته لتشتيت صفوف أعدائه فإنَّ ذلك معناه أنَّ الاله قد تخلّى عنه ، لذلك ضحّيتُ بعرشي لبلادي .

ـ ماتصوّرنا قطّ أنْ ينتهي الأمر بهذه الصورة ولا بهذه السهولة !

ـ إنَّه قَدَرُنا ..

نكّس الأمير رأسه ، وساد الصمت بعض الوقت ، وعندما طال رفع عينيه إلى الملِكة«سميرأميس» ، ولأول مرةٍ تلتقي نظراتهما ، سريعة ، خاطفة .. هو لا يقدر على النظر إليها احتراماً وخَشْية ، وهي لاتُريد أنْ ترى فيه مزيداً من الضعف والاستسلام ، تقديراً لبلده ، ومكانته ، وتضحيته بنفسه ليجنّب شعبه الدمار على يد الفاتحة الباسلة«سميرأميس» .



- ١١ -

«السلام»

عادت سميراميس إلى آشور، وعلى رأسها تاج النصر، ومعها الأمير الأسير، وقد تحقَّق لها المجد .. وعندما وصلت إلى عاصمة مملكتها استقبلتها الجماهير بأصوات هادرة، في حين كانت الحمامات تمضي مع موكبها مُرفرفة، كأنها تدرك ماجرى وماحدث .. وعلى جانبي الطريق إلى المعبد الكبير، الذي تَمَّ تشييده، كان الشباب الصغير يقف مُلوّحاً بالأعلام والرايات، في حين كان الاطفال ينثرون الزهور من تحت أقدامها، وهي تخطو في عظمة وجلال، والموسيقى تصدح، ودُخان البخور يعبق في الجو، وعندما وصلت إلى الدرجة العُليا من سُلَّم المعبد، التفتت إلى الناس الذين غطَّوْا الساحة من أمامها، فأرتفعت من جديد هتافاتهم عالية صاخبة، وباشارة من يدها استدعت حامل راية الجيش، فقَدِم نحوها، وانحنى، واقترب مِنها العَلم، تُداعبه النسمات، فأمسكت بأطرافه، ومالت عليه، حتى احتوى وجهها الجميل، وراحت تَقبِّلهُ، والصيحات تشق عنان السماء، فالجماهير ماعادت بقادرة على أنْ تكبح جِماح حماستها للملكة الساحرة، وآشور الخالدة .. ومن جديد رفرفت الحمامات وطارت مُبتعِدة إلى السماء تُلاحقها الهتافات.

وانتصبت«سميراميس» فجأةً، واشارت بيديها الفاتنتين إلى الشعب والجيش في الميدان وقد اختلطا في لحظة من لحظات التاريخ الخالدة، وعندما فتحت سميراميس ثغرها لتتكلم ساد الصمت الرهيب ودوَّى صوتها

- ياأبطال آشور، يارماحها، وسِهامها .. يارجال دجلة والفرات، يادروعها، ياسيوفها .. يامَنْ تغلي في عروقهم دماء النصر، ياجيشي الظافر، أريد أنْ أضَعَ على رأس كلّ منكم تاجاً، وأرغب في أن أطوقَ أعناقكم بالأكاليل والزهور، لأنّني يارجال ياأبطال أحِبُّكم من كل روحي، من كل دمي ..

ومن جديد عادت الهتافات مصحوبة بدقات السيوف فوق الدروع مُنغّمة، مُوقَّعة، وكلها تُردّد كلمة واحدة :

- سميراميس .. سميراميس .. سميراميس ..

وأشارت من جديد .. وعاد الهدوء ..

- يابُناة آشور .. وبابل .. ونينوى .. يافاتحي آسيا وافريقيا .. شرَّفتم وطنكم، وأعليتم قَدْرَه، وأستطيع أنْ أرى نجمة في السماء .. ومن حقكم أنْ ترفعوا



الرؤوس ، وأنْ تكشفوا عن جروحكم وندوبكم وأنْ تفخروا وتتيهوا بها ، فإنّها من أجل مجد الوطن ..

ولوَّحت للحمائم ، وقالت :

ـ شكرا لكم أنتم كذلك ، ياحُرّاس سمائنا الخالدة ..

وقبل أنْ يعود الهتاف من جديد ، قالت :

ـ والآن ، سوف أدخل المعبد ، لأشكر الاله على مامنحنا إيّاه من نصر وظفر ..

ودلفت سميرأميس إلى بهو المعبد تلاحقها الهتافات ..

وعاشت آشور أياماً مجيدة ، ولم تخلدْ الملكة سميرأميس للراحة بل راحت تُفكّر وتحلُم :

ـ تُرى ، كيف يعيش اسمي ويبقى على مَر الأيام ؟!

استدعت إليها الأمير المصري .. مَنْ أقدر منه على معرفة أسرار الخلود ؟!

المْ ينجح أبناء بلده في أنْ ينقشوا على صفحات التاريخ أمجادهم وفتوحاتهم ؟!

وبدأ يُشير عليها بالكثير ، وتعددت اللقاءات ، وعندما جلست الملكة إلى كبير الكهنة ، راح يُحدِّثها عن أساليب ذلك الشعب الذي يعيش على ضفاف النيل ، وكيف تعلَّم أنْ يُحقّق أهدافه بوسائل غريبة وفريدة ، وكيف انَّه صَبَر على النهر ، وراح يُروِّضه حتى أصبح طَيِّعا بين يديه ، وكيف أنَّه تمكّن من الإيقاع بالحيثيين وكل مَنْ تسول إليه نفسه الاعتداء على أرضه وأهله ، وكيف انّه شعب واسع الحيلة ، وأنَّ مالا يقدر على انتزاعه بالقوة والعنف يستطيع أنْ يحصل عليه بالدهاء ، وبرَغْمِ كل مايبدو عليه من مظهر بسيط .

استمعت الملِكة إلى هذا البيان الطويل من كبير الكهنة ، كما أنَّها أنصتت لكلام شبيه بذلك من كبير القادة ، لكنَّ هذا كُلّه لم يَحُلْ بينها وبين الالتقاء بالأمير الأسير ، وكثيراً ماكانا معاً يتجولان في الحدائق ، وهي تطرح عليه أفكارها ومشاريعها ، وهو يُدلي إليها بخِبراته العريضة ومعارفه الواسعة .. وبدأت تبني المعابد ، وتحفر على جُدرانها قصص فتوحاتها وأمجادها ، وراحت تُروِّض النهرين لتخضرَّ الأرض فيما بينهما ، كما أنَّها أنشأت المُدُن ، وبنت القصور والدور ، وأقامت الحدائق ، ونثرت الزهور في كل مكان ..

وذات يومٍ شعرت سميرأميس بالحزن عندما أخبروها أنَّ الامير الاسير قد لَقِيَ مصرعه في مبارزة بينه وبين قائد الجند وأنَّ قائد الجند قد أصيب بطعنة سيف أسلمته للفراش ، ورُبّما يبقى فيه طويلاً طويلاً .

وظلَّت سميرأميس تتابع البناء والعمران فكانت تشهد القناطر إذا أقيمت ، أوْ المشروعات إذا أنجزت ، أو المباني إذا شُيّدت .. وكان العمل يجري على قَدَم وساق ، لأنَّ الملِكة ارادت أن تُخلِّد اسمها بوضعهِ فوق كل نُصب ، وعلى كل جدار ، وداخل كل معبد ، وراحت تُشرف بنفسها على حدائقها وكثيراً ماكانت سميرأميس تسأل نفسها :

اتمنى أنْ أكونَ ناجحة في دُنيا البناء كما كنت في ميدان الحرب

- ١٢ - «النهاية»

ذات ليلة سهرت سميراميس وحيدة في حدائقها .. كانت ترمق النجوم بنظراتها الحالمة ، وتسال نفسها السؤال الخالد :

- وماذا بعد ؟!

سيطر عليها حُلم الخلود .. إنَّها لا تُريد انْ تمضي ، وتذهب كما حدث لَمن قبلها ، هي تريد أنْ تُردِّد الأجيال اسمها ، وانْ تعرف لها مجدها .. وكان الأمير المصري يُشير عليها بالكثير ، لكنَّه رحل ولن يعود .. وهي على مدى نهارها وليلها تستعرض أحداث حياتها ، وتعيش لحظات مع ذكرى فتوحاتها ، والأخبار تاتيها من كل ارجاء مملكتها أنَّ الناس مازالوا يُردّدون اسمها ، ويهتفون به ، ويُقدِّرون لها بطولتها وشَجاعتها .. وتسال نفسها :

- هل ينتهي كل ذلك بموتي ؟!

وتهتف : لا .. بل لابدَّ ان يبقى على مرّ التاريخ والزمن !
وتنشط سميراميس في التعمير والبناء .. وتفكر ..

- تُرى ماذا يمكن أنْ أكتب على قبري ؟!

وتستدعي إليها البنائين ، والفنانين ، وتناقشهم في كل شيء .. هي تُريد صروحاً عالية ، واهرامات خالدة ، ومَسلّات باسقة ، يذكرها بها الناس .. وتُريد انْ تبقى حَيّة بعد رحيلها ، لذلك امرت سميراميس انْ تُحفر هذه الكلمات على قبرها :

«إنَّ الحياة خلقتني امرأة
ولكن أعمالي ساوتني بأشجع الرجال .
فقد جلست على عرش نينوس
الذي يمتد ملكة شرقاً إلى نهر هينامانيس
وجنوباً إلى بلاد البخور والمرّ
وشمالاً إلى حدود بلاد الساس وسوجديان
ولم يتح لآشوري قبلي أنْ يرى البحار
أما أنا فرأيت منها أربعة
لم يمخرْ عبابها أحد لبعدها
وجعلت الأنهر تجري حيث أريد



في كل مكان نافع
فأصبحت الأرض كثيرة الخصب
وكذلك أنشأت القلاع والحصون المنيعة
وشققتُ بحديدي في الصخر مسالك لمركباتي
لم تقع عين حيّ - حتى الحيوانات المفترسة - على مثلها
ومع ذلك لم تمنعني هذه المشاغل مِن أنْ آخُذ قسطي أيضاً
من اللهوِ والحُبّ» ..

وذات مساء تسأل سميراميس نفسها ..

- الرحيل ؟ إلى أين ؟!

كانت الحمائم مازالت تلوذ بها ، وتحطّ من حولها ، وتلتقط الحب من بين يديها ، وتُرفرف فوقها ، وتقف فوق كتفها ، والناس يَرَوْنَ ذلك ويسعدون به ، في حين هي حالمة تُفكّر :

- لماذا أمضي ؟!

ويكون الردّ : هكذا الحياة ، لها بداية ونهاية !
وتحدّث سميراميس نفسها :
- لكنني كنت دائماً مختلفة عن كل الآخرين .. إنني ملكة منذ اثنين وأربعين عاماً .

من حكم مثلما حكمت ؟ ثُمَّ .. إنَّ فتوحاتي شرقاً وغرباً ، في آسيا وافريقيا ، لم يأت بمثلها قائد أوْفاتح .. هل يذهب كل ذلك مع الريح ؟!
إنها تحتضن واحدة من الحمامات ، وتضمها إلى صدرها ، وتروح ترفعها لتلصقها بخدها في حنان ، وتحس بالارتياح .. وهي أحيانا تَعدُّ الريش في جناح الحمام أوذيله ، وتتطلع إليه وهو يطير من بين يديها ، وتتابعه وهو يصعد عالياً .. وهمست يوماً :

- لماذا لا أصعد بالطريقة نفسها

وتقول الاسطورة إنَّ سميراميس من شغفها الشديد بهذه الفكرة التي سيطرت عليها ليل نهار تحولت ذات يوم إلى«حمامة» ؟!
كيف كان ذلك ؟ هل حدث بحق ؟!.. لاندري ..
والحكاية تقول انها تنازلت عن عرشها ، ولم تعد راغبة فيه ، وإن جناحين قد نبتالها ، وإنها طارت ، وطارت ، وطارت الى عشها كالحمام الزاجل ! وراحت ترتفع وترتفع الى أن اختفت في الأفق .. ورافقها في رحلتها سرب من الحمام ظل يواكبها الى أن صارت نقطة في صفحة السماء الزرقاء ، وراحت تصغر رويداً رويداً حتى غابت عن الانظار وعن الأرض .



السعر داخل العراق : ١٥٠ فلسا
دار الحرية للطباعة
رقم الايداع ٧٥٧ في المكتبة الوطنية ببغداد لسنة ١٩٨٧